تحديث المجتمع والمعضلة الراهنة*	دكتور وهبة طلعت أبو العلا أستاذ مساعد ورئيس قسم الفلسفة كلية الآداب - جامعة المنيا

إن الملاحظ للتطور الذي طرأ على ثورة يوليو ١٩٥٢م، سوف يجد أنه مر بمراحل ثلاث: الأولى جاءت على هيئة فكرة، والثانية كانت بمثابة نقيض للفكرة، أما الثالثة فهي عبارة عن "خليط" ــ وليس مركب ــ من الفكرة، ونقيض الفكرة. المرحلة الأولى كانت بمثابة انتصار للمطلق ــ سواء كان مطلق التراث (أو العرف) أو مطلق الثورة ــ على النسبي، "الشرقي" على الغربي، الأبدي على التاريخي، الثبات على التغير، الشكل على الديناميكية.

أما المرحلة الثانية فكانت عبارة عن رد فعل مضاد للمرحلة الأولى، إنها كانت بمثابة الوثوب بالتطور من النقيض، إلى النقيض، من المطلق، إلى النسبي، من الشرقي، إلى الغربي، من الأبدي، إلى التاريخي، من الثبات، إلى التغير، من الشكل، إلى الديناميكية.

أما المرحلة الثالثة فهي المرحلة التي وصل فيها التطور إلى أقصى مدى ممكن له، حيث ساد "خليط" ــ إن صح التعبير ــ من الفكرة، ونقيض الفكرة، من المطلق، والنسبي، من الشرقي، والغربي، من الأبدي، والتاريخي، من الثبات، والتغير، من الشكلي، والديناميكي. هذا "الخليط" يكشف عن "تعايش" ــ وليس عن "مصالحة" أو بالأحرى تكامل ــ بين النقيضين!

إن المرحلة الأولى هي التي عايشها الناس في ظل الحكم "الناصري"، والمرحلة الثانية كان يمثلها النظام "الساداتي"، أما المرحلة الثالثة

---

*مقالة ألقيت في مؤتمر كلية الآداب، جامعة المنيا، الذي عقد عام ٢٠٠٢/٢٠٠٣م تحت عنوان "العلوم الإنسانية وتحديث المجتمع المصري"

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

فهي التي تعايشها مرحلتنا الحالية، وهي بيت القصيد هنا لأنها تمثل، كما ذكرت، أقصى مراحل التطور بالنسبة "لنا"، ومن ثم تثير السؤال الملح: وماذا بعد؟ باعتباره السؤال الذي يكشف عن ما أطلق عليه اسم "المعضلة الراهنة".

إن الإجابة على هذا السؤال لا يمكن أن تكون هكذا: إن المرحلة الحالية هي "أشمل" المراحل الثلاث لكونها تفسح مكانا للنقيضين معا، ومن ثم لإمكانية "التعايش" أو "التجاور" معا، الأمر الذي يحتم الإبقاء عليها بكافة الطرق الممكنة وغير الممكنة إرضاء لجميع الأطراف! فزيف هذه الإجابة يكمن في أن هذه المرحلة هي مرحلة "ثنائية"، والثنائية تجعل الإنسان منقسما ــ عن وعي أو عن غير وعي ــ على نفسه، يؤكد باسم أحد النقيضين، ما يتعين عليه أن يرفضه باسم الآخر، ولهذا فهي تتسم بالهشاشة المعرضة للتصدع والانقسام في أي وقت ــ سواء من الداخل، أعني، في وعي الفرد، أو من "الخارج"، أعني، بين أفراد المجتمع أنفسهم، ناهيك عن أن "تثبيت" أي مرحلة بشكل دائم ــ وتحت أي زعم من المزاعم ــ فيه نفي للديناميكية التي يتصف بها الوجود نفسه، الذي يتجاوز بالضرورة أي شكل من الأشكال الثابتة التي قد يتبدى فيها.

إن الأمر ــ كما أبصره ــ يقضي بتجاوز هذه المرحلة بالضرورة. غير أن هذا التجاوز قد يحدث ــ في ضوء استقراء الماضي ــ على هيئة "رد فعل جديد" من أنصار "الثبات"، ثم بعد ذلك يعقبه "رد فعل آخر" من جانب أنصار التغير، يترتب عليه في النهاية "رد فعل ثالث" يجمع بين النقيضين معا، وهكذا إلى ما لا نهاية. وفي كل مرة تكون هناك عودة إلى وضع سابق حتى وإن لبست العودة رداء أو ثوبا جديدا في كل مرة!!

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وفي خضم هذه العملية ــ هذا إذا سارت على هذا النحو ــ يصعب الحديث عن "التحديث" بأي معنى فريد. فالتحديث لا يمكن أن يكون عبارة عن المطالبة بتطبيق التجريب حتى إذا وصل التجريب إلى أقصى مدى ممكن له، لأن التجريب هو حتما انتصار لجانب واحد من جوانب الصورة، أعني، الجانب الذي يقول ضمنا بالتغير، بالنسبية المطلقة، ومن ثم رفض ما هو إنساني–روحي. ومما لا شك فيه أن الحديث عن "التحديث" بهذا المعنى يكشف عن موقف أحادي الجانب، ومن ثم عن الضيق والمحدودية.

والتحديث ليس معناه فعل العكس، لأن غض الطرف عن النسبية، تحت مزاعم التنظير المجرد المطلق، معناه إقحام النظريات الجامدة على الواقع المتغير، الأمر الذي يفضي في نهاية المطاف إلى أن تكون النظريات في وادي، والواقع في وادي آخر.

والتحديث لا يمكن أن يكون عبارة عن مجرد الاكتفاء بشحن العقول بمناهج علمية جديدة، أو تمكين الناس من استخدام أدوات تكنولوجية على أرقى مستوى، وتمكينهم من ارتداء أرقى الأزياء وأحدث التقليعات في عالم الموضة!! وذلك لأن التحديث بهذا المعنى هو تحديث "ظاهري" فقط وينتمي إلى النوع الأول، حيث يترك الإنسان مبتعدا عن "الجوهر"، أو منقسما رغما عنه بين هذا الجانب المادي الظاهري، وبين الجانب الروحي الجوهري.

والتحديث لا يمكن أن يعني الدعوة إلى أن أن نترك وشأننا، نأخذ من "الآخر" ما يفيدنا فقط، وندع ما لا يتفق معنا. فالمسألة لم تعد وقفا علينا من سائر الاعتبارات، إنها لم تعد مسألة ذاتية خالصة، وإنما هي مزيج من

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الاعتماد المتبادل، رغما عن الاستقلال، بين "الأنا" و"النحـــن"-ذات، وبيـــن "الآخر".

إن التحديث هو في اعتقادي مسألة "إيقاظ للوعي" ــ الوعي بـالذات والوعي بالعالم ــ سواء نظر إليه من "الداخـل" أو مـر "الخـارج" ــ فـي اعتمادهما المتبادل على بعضهما البعض، رغما عن الاستقلال. ولكـي يتـم إيقاظ هذا الوعي يتعين علينا، بالطبع، أن نقدم للناس فهما كليا تكامليـا لمـا آلت إليه الأمور، ولما يمكن أن تصير إليه، أن نرتفع بالجزئي والكلـي إلـى حيث التعانق معا في كل تكاملي، حتى يمكن تبصير النـاس ــ إمـا بشـكل مباشر، أو حتى بشكل غير مباشر (وإلى حين) ــ بما يتعين عليـهم عملـه. هذا العمل هو من عمل الفلسفة أساسـا، بالتعـاون مـع كافـة القطاعـات الأخرى، وذلـك لأن الفلسـفة هـي أكثرهـا اتصافـا بالرؤيـة الشـمولية والتكاملية، حتى وإن كانت هناك حقيقـة دامغـة تتمثـل فـي عـدم قـدرة الفلسفة ــ في العالم النامي ــ على القيام بهذا الدور لأسباب عديـدة معقـدة ومتشابكة لا مجال للحديث عنها الآن.

ونظرا لمحدودية المكان، فسوف أكتفي هنا بتقديم تصور كلي لمـا يمكن أن تكون قد آلت إليه الأمور على بعض المستويات، أملا في أن يكـون هذا التصور بداية ــ مجرد بداية ــ لجهود مثمرة في إيقاظ الوعـي بشـكل منظم ومقصود ومستمر، وليس بصورة عشوائية قوامها التخبط بيـن هـذا الإمكان الجزئي، أو ذاك الذي تفرضه طبيعة الظروف.

إنني أرى أننا نعيش الآن ــ وبعد وصولنا إلى نهايـة التـاريخ أو الحكم المطلق للعالم الذي تحدثت عنه (ولا أريد أن أقول بشـرت بـه) فـي كتابي "الوجود المقلوب" ــ نعيش في ظل ما أريـد أن أطلـق عليـه اسـم "الولايات المتحدة الإنسانية". وحكام هذه الولايات هم "الصفوة" الذين أطلقـت

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

عليهم في كتابي هذا اسم "حراس العالم". ومفهوم "حراس العالم" كما طورته في ذلك الكتاب هو مفهوم ديناميكي، وليس مفهوما إستاتيكيا سلبيا. فلا أحد معفى من حيث المبدأ من أن يكون ــ إن استطاع ــ من بين "حراس العالم". (والمرء لن يكون من بينهم إلا إذا عمل لمستقبل الإنسانية في ذاتها وليس للإنسانية كما هي متجسدة في عرق أو لون أو جنس معين، حتى وإن فعل ذلك من خلال انتمائه الظاهري ــ الذي يصعب تجنبه ــ لأحد الأعراق أو الأجناس). كما أن مقرهم المكاني يتسم هو الآخر بالديناميكية. فهو لا يكون وقفا على مكان واحد بعينه ــ حيث لا يوجد أي مكان من الأماكن يكون معفى من حيث المبدأ من أن يكون مقرا لهم. فإذا كان المقر في "أمريكا" الآن، لا تستبعد أن ينتقل ــ وبمعرفتهم هم أيضا وذلك لأن التاريخ قد سجن أو فقد التلقائية في الخفاء وليس في العلن حتى لا يتعرض الناس لاحتمالية اليأس من الوجود ــ إلى "روسيا"، أو إلى أي مكان آخر، إبقاء على ديناميكية الواقع الإنساني وخصوبته. فكل شئ خاضع للديناميكية والمرونة، ويكون مستعدا لتقلبات سائر الظروف، سواء التي يحدثونها هم بأنفسهم حفاظا على ديناميكية الواقع أو التي يكشف عنها التطور نفسه بشكل غير متوقع، لأن كل شئ تحت التحكم أو السيطرة وموضوع في الحسبان حتى من خارج الكرة الأرضية نفسها.

والقاعدة الأساسية بالنسبة لهم، وكما أبصرها، هي قاعدة إيجابية. إنها تقول: "من الكل ولأجل الكل". ماذا أعطيت وتعطي، حتى تستطيع أن تأخذ؟ ماذا تقدم للإنسانية، حتى تستطيع أن تدعي الحق في أن تأخذ منها؟ من هذا الاعتبار لا يكون هناك شئ سلبي بإطلاق، أو إيجابي بإطلاق. فالسلب الظاهري يكشف في باطنه عن إيجاب، والإيجاب الظاهري يكشف في باطنه عن سلب. والوحدة بينهما هي وحدة جدلية تكاملية، وليست علاقة ثنائية. فكل شئ يكون معتمدا على كل شئ اعتمادا متبادلا، رغما عن

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الاستقلال. هذا هو في اعتقادي مبدأ "حراس العالم" الذي لا يصرحون به علنا لأسباب لا داعي لتعرض لها الآن خاصة وأنني تعرضت لها بالتفصيل في كتابي "الوجود المقلوب". والوعي بهذا المبدأ لا غنى عنه في عملية إيقاظ الوعي من أجل التعرف على الأبعاد الحقيقية لطبيعة موقفنا.

ولا يعني هذا القضاء على الهوية الذاتية ومحوها. فالمبدأ العام لـ "حراس العالم" ــ وكما أراه ــ هو مبدأ حق الاختلاف، وليس مبدأ القضاء على الاختلاف ــ إنه الوحدة في اختلاف ــ حتى وإن كان الاختلاف يتقيد بضرورات عامة. فهم يريدون الحفاظ على سائر الإمكانات المختلفة حتى يكون لديهم دوما "مخرج" حين يتعذر كل مخرج. فالعالم أصبح بالنسبة لهم أشبه بغابة مليئة بالأشجار، كل شجرة لها الحق في أن تنمو وتنبثق كيفما تشاء دون عوائق تعوقها، أن تكشف عن إمكاناتها الحقيقية، ولكن هناك ضرورات عامة يتعين على سائر "الأشجار" مجاراتها، وتلك هي التي تجعلنا نطلق على الغابة اسم الغابة في نهاية المطاف. هذه الضرورات العامة هي التي تحول بين "شجرة" من الأشجار وبين أن تطغى على ما عداها، وهي نفسها التي ترسي مبدأ "التكامل" بين كافة الأشجار. فكل شجرة ــ أو دولة ــ تكتسب أهمية ذاتية، من ناحية، إنها تكون مجرد إمكان حقيقي من بين إمكانات أخرى، غير أن هذه الأهمية تقاس، من ناحية أخرى، في ضوء أهميتها بالنسبة "للكل" التي هي جزء منه. وإذا كف "إمكان" عن التمتع في حد ذاته بأي أهمية، وأصبح معوقا للإنسانية بدلا من أن يساهم في تطورها وتقدمها، فسوف يتعرض للفناء الذاتي. والتاريخ ملئ بشواهد لا حصر لها على ذلك.

القاعدة، الآن، إذن، هي "التكامل" ــ الاعتماد المتبادل للكل على الكل رغما عن استقلال الكل عن الكل. فهل نستطيع أن نقيم التحديث على هذا الأساس، أعني، على أساس بناء الشخصية المتكاملة "من الداخل" من

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ناحية، والمجتمع المتكامل مع "الكل" ــ أو مع الإنسانية كلها، من ناحية أخرى؟ إنني إجد في هذا المعضلة الراهنة الخاصة بتحديث المجتمعات النامية بكاملها. فهذه المجتمعات تصادف مشكلة عندما تتطرق إلى عملية بناء الشخصية المتكاملة. إنها، بتعبير سياسي، إما لا تستطيع أن تخلص نفسها من الفعل في ضوء نظرية قبلية تدعي صدقها المطلق، وتحاول فرضها على الواقع مدعية أن الواقع يجاريها ويتوافق معها. إنها، بتعبير آخر، تضحي بنسبية الواقع من أجل النظرية المجردة التي تسبغ عليها الطابع المطلق، وتقع في كل مرة تحت وهم ادعاء يوتوبي سرعان ما يثبت فشله ويصيب الناس بالإحباط وخيبة الأمل، لأن الواقع لا يقبل التحقق اليوتوبي الكلي. أو تفعل العكس، أعني، ترتد إلى النسبية، إلى رفض كل نظرية مجردة كرد فعل لخيبة الأمل في التحقق اليوتوبي. أو تنقسم بين هذا، وذاك، تاركة الناس حيارى بين هذا، وذاك، أو في حالة "شلل" فكري تام!!

كما أن المجتمعات النامية تصادف مشكلة أكبر عندما تتطرق إلى محاولة تحقيق التكامل مع "الكل" بالمعنى الحقيقي الذي يريده "حراس العالم". فهي لا تستطيع أن تفعل ذلك معتمدة على نفسها فقط، لأن هناك هاوية بين هذه المجتمعات في واقعها العيني ــ هذه الهاوية تتخذ مظاهر شتى ــ وبين ما يريده مجتمع "الحراس" ــ ذلك المجتمع الذي لا يعفى أحد من المشاركة فيه من حيث المبدأ، كما سبق أن ذكرت، والذي يعمل لصالح الإنسانية كلها من اعتبار، وضد الإنسانية كلها أيضا من اعتبار.

هذه الدعوة لا يجب أن تؤخذ على أنها دعوة إلى الإحساس باليأس والإحباط، وإنما هي دعوة إلى إقرار تناهينا، إلى إقرار أن هناك فارق بين القرارات الخاصة المتعلقة بتنظيم حياتنا اليومية ــ فهذه تترك لسائر الأفراد الذين يشكلون المجتمع ــ وبين القرارات المتعلقة بتحديد مستقبل الإنسانية جمعاء بما فيها نحن، والتي هي من عمل مجتمع "حراس العالم".

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الأولى تحدث على الصعيد الأفقي وتهم الناس بشكل مباشر، والثانية تحدث على الصعيد الرأسي، إنها تهبط من "أعلى" إلى أسفل، من "حراس العالم" إلى "الكل"، حتى وإن كانت تقوم على استبصار لطبيعة "الكل"، وحتى إن كانت تقدم أحيانا بطريقة غير مباشرة (في الدول النامية)، وتقدم في أحيان أخرى بطريقة مباشرة (في الدول المتحضرة أو في بعضها على أقل تقدير.) وعلى الصعيد الرأسي لا نملك، في الوقت الحاضر، إلا أن نصغي ونعمل مع تربية الجيل على الوعي بـ والثقة في أن ما هو معطى في لحظة تاريخية ما يمثل أفضل الإمكانات المتاحة، حتى وإن بدا غير مفهوم في ظاهره، وحتى إن بدا شرا في ظاهره فهو ينطوي في باطنه وفي نهاية المطاف على خير سوف يتحقق "للكل" وعلى المدى الطويل. وإذا كنا لا نريد أن نعمل بناء على ذلك في الوقت الحاضر، فعلينا أن نعمل على الارتفاع إلى مصاف "حراس العالم" في النظر والعمل، وفي هذه الحالة سوف نلتقي معهم بالضرورة. أما إذا كان هذا مستحيلا من كافة الاعتبارات، فعلينا الاكتفاء بالاستمرار في تبصير الناس بأهمية "دور الأهمية السلبية" الذي نكتسبه بحكم الظروف، والذي لا يخلو في باطنه من إيجابية، كما سبق أن ذكرت.

غير أن هذا ليس بالتحديث الحقيقي. فالتحديث الحقيقي، إيقاظ الوعي الحقيقي، لن يحدث إلا عندما يصل المجتمع إلى الوعي بالحاجة إلى "التكامل"، إلى الاعتماد المتبادل بين الأفقي والرأسي على بعضهما البعض، إلى أن نشكل واقعنا في ضوء مقتضيات الإنسانية جمعاء، وأن نشارك في صنع مستقبل الإنسانية بناء على مقتضيات واقعنا. والتحديث الحقيقي لن يتحقق إلا عندما نصل إلى النقطة التي يصل فيها الوعي إلى إقرار ضرورة الحاجة إلى "تكامل الشخصية". في هذه الحالة سوف نتخلى عن التفكير الأحادي، وعن التفكير الثنائي، عن الارتماء في أحضان أحد

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الجانبين تـــارة، وعـــن الانقســـام بينـــهما ــ عـــن وعـــي أو عـــن غـــير وعي ــ بينهما تارة أخرى.

والوصول إلى هذا الوضع "المثالي" لا يعني انتهاء "الصـــراع فـــي الوجود". إن القول بذلك سيكون في اعتقادي بمثابة توقع يوتوبي آخر مآلـــه إلى الفشل وخيبة الأمل. فالوجود يخضع دوما، وكما أوضحت فـــي كتـــابي "الوجود المقلوب"، لجدل السلب ــ الإيجاب، الهدم ــ البنـــاء. فـــهذا الجـــدل يطبق ــ بمعرفة "حراس العالم" ــ على "الكل"، أحيانا بطريقة علنية مباشـــرة (في الدول النامية)، وأحيانا بطريقة خفية غير مباشرة (في العالم المتحضـــر). و"حراس العالم" يفعلون ذلك لإضفاء طابع الديناميكية علـــى الواقـــع، مـــن ناحية، وضمانا لعدم توازن القوى بينهم وبين "الكل" الذي يشكل دائرة يقفـــون هم خارجها من ناحية أخرى، وتحقيقا للتقدم المستمر للإنسانية جمعاء الـــذي هو هدف "حراس العالم" من ناحية ثالثة. وهم يســـتعينون فـــي ذلـــك بكـــل المبررات المباشرة وغير المباشرة (التي يقف علـــى رأســـها الآن "امتـــلاك وسائل التدمير الشامل" و"القضاء على الإرهاب الدولي"!!)

غير أن الوصول إلى هذا الوضع سوف يخدم في تبصـــير النـــاس بحقيقة موقفهم، وسوف يجعلهم على استعداد دائم للتعامل مع موقفهم بصـــورة واعية مقصودة بدلا من أن يجدوا أنفسهم مدفوعين إليه دفعا وعن غير وعـــي منهم. إنه سيجنبهم العيش في وهم الحرية، وسيمكنهم من التعرف على كافـــة الحقائق مهما بدت مريرة. وهذا لن يسوق بالضرورة إلى الرفـــض اليـــائس للحياة، لأن غريزة الحياة أقوى من غريزة الموت. في هذه الحالـــة ســـيحل الإصغاء محل المكابرة، وسيل التسامح محل التعصب، وسيحل قبول الآخـــر محل نفي الآخر، وستحل الصراحة محل النفاق، وسوف يزول الخوف مـــن النفوس. ومن يدري لعل هذا يقيم في نهاية المطاف إمكانية العمل "معا" مـــن أجل هدف إنساني مشترك، إنسانية الإنسان، التـــي يمكنـــها أن تحبـــط كـــل

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

محاولة لما يسمى باسم "صراع الحضارات"، ولا تقيم أي وزن حتى لما يطلق عليه اسم "حوار الحضارات"، حيث سيكون الهدف هو، وكما سبق أن ذكرت، اعتماد الكل على الكل رغما عن استقلال الكل عن الكل، وذلك تحت قيادة "حراس العالم". وإذا تحقق هذا سوف تكون الإنسانية قد وصلت إلى "الإنسان الكوني" الذي هو "سدرة المنتهى" أو "خاتم البشر".

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com